

أو الحديث ، ولكنه حتى عند هؤلاء قد دلّ بصفة عامة على الانتقال في التعبير من ملفوظ ظاهر إلى مفهوم ضمنا أو استنتاجا أو قياساً . الخ . ولسنا بسبيل تتبع اكتشاف وتطور وتحديد المصطلح^(٣) ، كما لا نحب أن نكون طرفا في قضية لغوية تاريخية لم تنته إلى طائل في أي من طرفين متباعدين يرى أحدهما - ويمثله ابن جني - أن الكلام أكثره مجاز ، ويرى الآخر ، ويمثله ابن فارس - أن الكلام أكثره حقيقة . وأبرز نواحي الضعف التي ساقته القدماء إلى المبالغة والتعميم في علاجهم للحقيقة والمجاز أنهم وجهوا كل عنايتهم إلى نقطة البدء في الدلالة ، وركزوا نظرتهم نحو نشأتها ، فتصوروا ما سموه بالواضع الأول ، وتحذثوا عن الوضع الأصلي . كأنما قد تم هذا الوضع في زمن متعين ، وفي عصر خاص من عصور التاريخ . كذلك فإنهم نظروا إلى كل عصور اللغة على أنها عصر واحد ، ومن هنا ظهرت بعض الألفاظ على أنها حقيقة بعد أن شاع أمرها وتوسيت مجازيتها ، فقال من قال إن الكلام كله حقيقة ، وتبين لآخرين من العلماء أن معظم الألفاظ لها تاريخ مجازي ، فخيّل إليهم أن كل الألفاظ تبدأ مجازية الدلالة ، وأن لا حقيقة فيها^(٤) . وكان بين الفريقين من يلحظ أثر التطور ، ويفصل بين النشأة والاستعمال السائد للفظ في عصر من العصور ، ويضع طبيعة المتكلم والمتلقي في اعتباره من حيث الطبقة والمهنة والهدف ، ويحتكم إلى الدلالة على أساس الأصالة والفرعية ترتيبا على النشأة والاستعمال ، وينبغي أن يضاف إلى ذلك كله مقياس الابتكار والجددة والإثارة وعمق الدلالة بحيث تحرك العقل وتنبيه الشعور ، بالنسبة للمجاز البلاغي ، أي المجاز كأسلوب أثير للتعبير الفني ، في الشعر خاصة .

لقد استقر المبدأ : أن المجاز سلوك لغوي ضروري لتنمية إمكانات التعبير وتجديد طرائقها ، ولكن استقر أيضا مبدأ : حتمية التطور ، وكل ندرة إلى شيوع وانتشار . وصحيح ما يقوله « شلوفسكي » : إن الناس الذين يعيشون على الشواطئ سرعان ما يتعودون على هدير الأمواج حتى أنهم لا يحسون بها ولا يسمعونها عادة ، ولنفس السبب فإننا لا نكاد نسمع كلماتنا نفسها وننظر إلى ما نألفه فلا نراه . ومن هنا يضعف إحساسنا بالعالم إذ يكفيننا أن نتعرف عليه .

(٣) ينقل السامرائي عن ابن تيمية قوله إن تقسيم الكلام إلى حقيقة ومجاز إنما هو اصطلاح حادث بعد انقضاء القرون الثلاثة ، والغالب أنه كان من جهة المعتزلة وغيرهم من المتكلمين . ويشير محمد بدرى عبد الجليل إلى تأثير المعتزلة والشيعية والصفوية وغيرهم ممن قال بالتأويل في نشأة هذا الفن . انظر : المجاز في البلاغة العربية ص ٤٧ وما بعدها - المجاز وأثره في الدرس اللغوي ص ١١٨ وما بعدها .

(٤) إبراهيم أنيس : دلالة الألفاظ ص ١٢٨ .